ثم دخل العام ٢٠١٥

معطف آخر، جوارب صوفية، بوت مبطّن بالفرو، قفافيز سميكة، وماذا أيضاً؟ بِطانات حرارية للأحذية، بيجامات شتوية.. ومع ذلك لم تثلج. الإنجليز كانوا، كالعادة، يتمنّون ميلاداً أبيض، ولكن لندن غير مضمونة الثلج..

الغريب أن الجميع، بدئاً من القساوسة إلى أقل الناس إيماناً أصبحوا يعلمون أن المسيح عليه السلام لم يولد في الشتاء، ويعلمون أن معظم الطقوس التي ربطوها بالميلاد لا علاقة لها بالمسيحية بل بالوثنية، ومع ذلك وقف بعض المنتمين للكنيسة في مداخل ومخارج المحطات والشوارع الهامة في ديسمبر، أحياناً بكتيباتهم التبشيرية المترجمة إلى عدة لغات وأحياناً بآلاتهم منشدين تراتيلهم، وهم يرتدون زي بابا نويل.. أعتقد أن السبب في حالة هؤلاء أنهم يفضلون جذب الناس بما ألفوه، بشكلٍ شبيه بخيار كبير القساوسة قديماً عندما تصالح مع الرومان وقبِل تداخل تقاليدهم مع المسيحية ليوفر لها فرصة الاستمرار على أمل أن يطهرها أبناؤها لاحقاً..

وما لهذا يبشّر صارخاً متشنجاً، ألا يلاحظ أن تشنجه يجعل المارة يشيحون بوجوههم وهم يعبرون إلى الرصيف الآخر؟

غير أن المدينة أدت ما عليها وازيّنت بالأضواء وأشجار الكريسماس وتماثيل بابا نويل، وصدحت بأغاني الميلاد ونشرت نسخاً شابة وحية (ونحيفة) لبابا نويل لتجوب الشوارع في أعدادٍ هائلة لجمع التبرعات وإشاعة أجواء الميلاد.. ولم يبق إلا أن تضفي السماء اللمسة الأخيرة لتكتمل الصورة التي رسمها الغرب وارتضاها للميلاد.. ولكن مؤشر الحرارة ما إن يصل إلى الصفر أحياناً في عمق الليل حتى يعود فيعلو درجاتٍ لم أكن أتخيل أنه يصلها خلال الساعة والساعتين، فلا تثلج.. فمرّ ميلادٌ آخر، ثم رأس سنة جديدة بلا ثلج..

ولكن ما لي ولكل هذا؟ ثم دخل العام ٢٠١٥ (على طريقة الطبري) وأنا هنا؟ كيف؟ وأين ما خططته للعام ٢٠١٤ فظل ينتظرني في الدوحة؟ لا بأس.. قريباً مدينتي الدافئة، قريباً بإذن الله..

دلال خليفة

نشر في الملحق الثقافي لجريدة الشرق القطرية بتاريخ ٢٠١٥/١/١١م